الذكرى الرابعة لشاعر البادية

الشيخ محمد عبد المطلب

للأستاذ فايد العمروسى

الذكرى لا تتسع لدراسة أو تحليل ، وحسبها أن تكون للقراء خاطرة وفاء ، ونفحة تقدير ؛ وعبد المطلب أحد شعراء العربية الذين خلفوا لنا تراثاً ممتازاً يضاف الى تراث المرحومين « شوقى » و « حافظ » ؛ غير أن هذا الرجل عاش مغبوناً ، ومات مغبوناً ، شأنه شأن « حافظ » بعد موته ، فلم يفز ديوانها بما كان ينبغى من عناية وتقدير ، اللهم إلا مقالات كتبها كاتب هذه الكلمة فى جريدة البلاغ بعد صدور الديوان فى الجو الأدبى ، وليس هذا بكاف فى تقدير الأدباء للشعر ، وخاصة لأعلامه وفحوله النابغين . والناظر إلى عبد المطلب لا يعرفه فى ديوانه فحسب ، لأنه ديوان ذو روح خاص ، واتجاه صبغته الصنعة فى أكثر مقاصده من فخر وحماسة وشكر ومديح وغزل ونسيب . . الخ وهذه ظواهر ما كان له أن يتخلى عنها وان حاول ، وما كان للفترة التى عاش فيها غير هذه المقاصد الشعرية تمشياً مع ميول الحياة التى ترغم الشاعر أن يتلون بلونها ، والتى تكوّن العناصر الأولى لفكره وخياله !

وقد كان رحمه الله شخصية عربية صميمة ، تنبئ مظاهره الخلقية أنه من سكان نجد أو الحجاز ، فى ضآلة من الجسم ، وقليل من القصر المتزن ، تنطوى هذه الضآلة على قوة الأسد فى عرينه ، تبدو بهما عيناه الواسعتان البراقتان اللتان تفيضان قوة وثقة واعتزازا ؛ وكان ذا نفس أبيّة ، وضمير حى ، وشعور متقد ، وإحساس صادق ، يهيج لأتفه أسباب الخلاعة أو اللهو ، فينفجر بأشد ما تكون الخلاعة قسوة وايلاماً ؛ وكان رجلاً بأسمى ما تكون الرجولة صفاء ونبلاً ، رجلاً جم العطف ، وافر الرحمة فياض الحنان . ولقد رأيته — رحمه الله — أكثر من مرة يسكب الدمع من عينيه لأمور لا تهيج عواطف الناس ، ولكنها تهيج ذوى النفوس السامية ، والاحساس المرهف القوى

وشخصيته على ما كان فيها من خشونة البداوة كانت تذوب رقة وحناناً ، وتفيض عطفاً ووداعة ؛ وديوانه حافل بصور من هذه العاطفة التى فتشت فى نواحى المجتمع المصرى فعالجته بأثمن النصائح وأغلى الحِكم ؛ وكم ودَّ تطهير النفوس ، وتهذيب الوجدان ، وصقل الادراك ؛ وكم ودَّ الرقى بالانسان إلى درجات العفة والصفاء . وما أشبه الثلاثة بعضهم ببعض : « حافظ والنفلوطى وعبد المطلب » فى هذا المجهود ! فترى الأخير يصف أسرة يتيمة بقطع من نفسه ، وذوب من فؤاده ، فى قصيدته العصماء التى استهلها بقوله :

أسألت باكية الدياجى مالها ... أرقت فأرقت النجوم حيالها

باتت تكفكف بالوقار مدامعا ... غلب الأسى عبراتها فأسالها

وفيها يقول :

حتى إذا رقد الأسى بجفونها ... وهفا النعاس برأسها فأمالها

خلب الطوى أحشاءها فتفزعت ... حيرى تعانى سهدها وملالها

وله وطنيات حارة ، ووصف رائع لمشاهد القومية المصرية ، وله علويته المشهورة التى أنشدها على « جمل » متشبهاً بالشعراء فى « عكاظ »

والشاعر على ما أعتقد ليس انتاجا من قصائد عريضة طويلة ، تطن بالرصانة ، وترن بجودة السبك والايجاد ، وإنما هو نفس قبل كل شىء ، وشعور يصدق فيما يحس أو يشاهد ، شعور يمتزج بالظاهر فيصير جزءا منها أو تصير هى مزيجاً منه ، لا يتخللهما التفريق ، ولا تحتوى هذه المواهب إلا النفوس الممتازة التى لا تنفتح فى دائرة ضيقة محدودة ، ولا تحيط فى نظرها السطحى من الكائنات . وعبد المطلب كان هذه النفس التى تضيق بما فيها من عوالم تائهة ، فتنبعث على الكون طائفة سابحة ، تستشعر ما فيه من جمال فتطرب ، وتحس ما فيه من آلام فتألم ؛ نفس خلقت لغيرها فنال منها كل شىء ، وهى لم تنل من شىء أى شىء ؛ وروح قسمته العاطفة ، ومزقته الرحمة ، فراح يوزع فيه كأنه نهب مستباح ، وهو إلى ذلك مطمئن الخاطر هادئ البال ... وإنه شخصية ممتازة فى جوهرها ، قبل أن تكون ممتازة فى شعرها وصنعتها ؛ وكم من قائل إن عبد المطلب قديم فى شعره ، قديم فى عاطفته ، جاهلى فى جميع نواحيه ؛ ولست أدرى كيف تكون العاطفة قديمة ، وهى شعور انسانى لا يتغير فى ذاته وجوهره ، وإن تغير فى اتجاهاته وميوله ،